المحاضرة السادسة بعنوان

الدراسات الاجتماعية عند العرب (ابن خلدون) الجزء الثاني

عناصر المحاضرة:

1- القواعد المنهجية القسم الوصفي الإيجابي.

2- خواص ظواهر الاجتماع الإنساني.

3- الدراسات الاجتماعية والنتائج التي وصل إليها ابن خلدون.

4- قانون الأطوار الثلاثة للمجتمع الإنساني.

5- دراساته السياسية.

6- دراساته الاجتماعية الأخرى.

7- نقد آراء ابن خلدون.

أهداف المحاضرة:

1- تفسير القواعد المنهجية عند ابن خلدون.

2- وصف ظواهر الاجتماع الإنساني.

3- تحليل الدراسات الاجتماعية والنتائج التي وصل إليها ابن خلدون.

4- شرح قانون الأطوار الثلاثة.

5- نقد آراء ابن خلدون.

وظيفة علم الاجتماع

هي الكشف عن القوانين التي تسير وفقا للظواهر العمرانية في نشأتها وتطورها والوظائف التي تؤديها.

وللوصول إلى هذه الغايات النظرية، اتبع ابن خلدون في بحوثه ودراساته منهجا مختلفا لمناهج سابقيه، قائما على دعائم من:

- الملاحظة والتجربة الشخصية.
- والمنطق العلمي.
- واستقراء الحوادث.
- التحليل.
- والمقارنة.

hadeel alnafea

ومنهج ابن خلدون ينقسم إلى قسمين وهما:-

- القسم الأول نقدي سلبي: وهو القسم الذى يعرض فيه أخطاء من سبقه من المؤرخين ويطلب فيه تجريد عقل الباحث أو المؤرخ من هذا الأخطاء.
- والقسم الثاني وصفي تحليلي أو ايجابي: ويقوم على إتباع الأسس المنهجية التي ترشد الباحث في الوصول إلى القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية.

ولا يستقيم التاريخ ولا يستقيم الفكر في شؤون العمران إلا إذا تخلصنا من آثار هذه الأخطاء وجردنا العقل من شوائبها.

وهذا القسم النقدي مهم جداً للمؤرخ وعالم الاجتماع على السواء.

وقد كان ابن خلدون موفقاً في تقرير هذه الأخطاء، فقد دلّ تحليله على عقلية دقيقة، وعلى أننا أمام مدرسة جديدة في البحث والدراسة.

ابن خلدون

بعد أن يحدثنا ابن خلدون عن الأخطاء المشار إليها بالقسم الأول وهو القسم النقدي ينتقل بنا إلى القواعد المنهجية التي تكون القسم الثاني الايجابي عن منهجه واليك أهم هذه القواعد:-

أولاً: يجب الاعتماد على الملاحظة المباشرة وما تؤدى إليه التجربة.

ثانياً: يجب تفسير الظواهر وتحليلها واستخدام منطق التعليل.

ثالثاً: يجب الاعتماد على منطق المقارنة أو منهج البحث المقارن.

رابعاً: يجب قياس الأخبار على أصول العادة وطبائع العمران فلا يصح أن نأخذ الحوادث والأخبار كما تلقى علينا بل يجب أن ننظر هل هي ممكنة في ذاتها أو مستحيلة، وهذا النظر يتطلب منا معرفة تامة بطبيعة الظواهر الاجتماعية.

خامساً: يجب دراسة تطور الظواهر والنظم العمرانية.

أولاً: يجب الاعتماد على الملاحظة المباشرة وما تؤدى إليه التجربة.

نستطيع بالملاحظة وبما نشاهده التعرف على العالم بصورة يقينية إلى حد ما. وقد رفض ابن خلدون الأقيسة المنطقية لأنها لا تتفق مع طبيعة الأشياء المحسوسة، التي لا يمكن معرفتها إلا بالملاحظة. ويعتبر أن ما يزعمه البعض عن إمكان الوصول إلى الحقيقة بمجرد استعمال قوانين المنطق هو وهم كاذب. فالمنطق لا ينتج معرفة بل يرسم طريق التفكير، وهنا تكمن أهميته. لكن التجربة هي الأساس.

ثانياً: يجب تفسير الظواهر وتحليلها واستخدام منطق التعليل.

لهذه القاعدة أهمية كبيرة في الكشف عن القانون العلمي. فالتعليل قانون عقلي استخدمه المفكرون في جميع العصور وفي مباحث عديدة. وقد سجل ابن خلدون بهذا انتصاراً علمياً حيث كان من أوائل المفكرين الذين أدخلوا هذه القاعدة على الظواهر الاجتماعية، وهو بذلك وضع أسس المنهج الوضعي في الدراسات الاجتماعية.

ثالثاً: يجب الاعتماد على منطق المقارنة أو منهج البحث المقارن.

لقد أدرك ابن خلدون قيمة هذه الوسيلة من خلال الأسفار التي قام بها، ورحلاته الطويلة التي أدرك بها سر تباين المجتمعات وتشابهها. فقد أرجع هذه العوامل إلى أثر البيئة والعوامل الجغرافية، ولذلك عرض بإسهاب أثرها في أخلاقية

hadeel alnafea

الشعوب وطباعهم وأحوالهم الاقتصادية، ومدى تأثر الظواهر السياسية بهذه العوامل. ومما يدل على اهتمامه بالمنهج المقارن أنه كتب فصلاً كاملاً عن عوامل التباين في المجتمعات، ودرسها دراسة علمية وصفية تحليلية.

وفيما يخص القاعدة الرابعة والخامسة ، يريد ابن خلدون أن يقول أن دراسة المجتمع تولد عند الإنسان الاستعداد لإدراك القوانين الضرورية التي تحكم الظواهر.

والحق أن ابن خلدون أصاب الحقيقة في تقريره للقاعدة الأخيرة:

لأن دراسة تطور الظواهر تعتبر أهم أركان المنهج التاريخي.

وقرره في عبارة شهيرة:

"إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال..."

من أهم خواص ظواهر الاجتماع الإنساني:

أنها لا تدوم على حال واحد ومنهاج واحد، فهي متغيرة، وتختلف أوضاعها باختلاف الأمم والشعوب، وتختلف في المجتمع الواحد باختلاف العصور

وهذا ما فطن إليه ابن خلدون، وجعله أساساً لبحوثه في علم الاجتماع.

رابعاً: الدراسات الاجتماعية والنتائج التي وصل إليها ابن خلدون.

استفاد ابن خلدون من دراسة التاريخ الإسلامي ومن دراسته للشعوب الشرقية والوقوف على أسباب نشأتها وازدهارها ثم اضمحلالها وقيام دولة على أنقاض دولة أخرى.

ولذلك يقول ابن خلدون:

واستفاد ابن خلدون من كل هذه الأمور باستخلاصه قانوناً أساسيا يحكم حركة المجتمعات الإنسانية: وهو قانون الأطوار الثلاثة للمجتمع الإنساني

فكل مجتمع لابد أن يسير في الطريق الطبيعي:

1- الطور أو مرحلة النشأة والتكوين.

2- ثم طور النضج والاكتمال.

3- وأخيراً طور الهرم والشيخوخة.

حيث يقوم على أنقاضه مجتمع آخر يسير في المراحل نفسها التي سار فيها المجتمع السابق.

فالحركة الاجتماعية في نظره مستمرة وتؤدي وظيفتها بشكل آلي، فهي لا تنقطع، والمجتمعات الإنسانية لا تقف، والموت الاجتماعي أو فناء نظم المجتمع هو نقطة نهاية وبداية، فحيث ينتهي مجتمع ما، لا بد أن يستأنف السير مجتمع آخر، والمجتمعات الإنسانية ولو أنها تخضع حتماً لهذه الأدوار المتتابعة، غير أنها تختلف في مدى احتمالها لمرحلة دون الأخرى. أي أن القانون يختلف في شدته ودرجته باختلاف المجتمعات الإنسانية ، فمنها ما يبقى مدة طويلة في دور النضج، ومنها ما يصير إلى الشيخوخة ومنها ما يموت يافعاً.

hadeel alnafea

ودرس ابن خلدون خصائص كل مرحلة من هذه المراحل.

- فدرس ظاهرة العصبية بوصفها المجتمع القبلي
- ثم درس العوامل الديناميكية التي تؤدي بالمجتمع القبلي إلى التطور وهي العصبية والفضيلة والدعوة الدينية
- ودرس دعائم المجتمع المتحضر من حيث الانفراد بالمجد والسلطان

<u>وانتهى إلى تقرير حقيقة هامة وهي:</u>

(أن الهِرمْ إذا تنزل بدولة فإنه لا يرتفع) أي أن الإصلاح الاجتماعي لا يجدي قليلا متى شاخت الدولة وهرمت وأصيبت بانهيار روحي وخراب مادي.

ودرس ظاهرة التقدم الاجتماعي وقرر في هذا الصدد أن المراحل التطورية السابقة مصحوبة بتقدم ملحوظ في أحوال المعيشة وفي مستحدثات النظم والحياة الاجتماعية. غير أن هذا التقدم مآله إلى الجمود ثم النكوص عندما يتطرق الفساد إلى قلب الدولة. وشرح العوامل التي تساعد على زيادة سرعة التقدم ، ومنها العوامل المورفولوجية والبيئية وعدد السكان وعدالة الحكومة واستطالة سلطان الدولة.

ولهذا قرر أن هناك علاقة وثيقة بين عمر الحضارة وعمر الدولة. فقرر أن الحضارة تحدث آثاراً سيئة في الجسم والعقل وفي أخلاق الناس، لأنها تؤدي إلى الترف . وهذا بدوره يؤدي إلى السكان والدعة.

وهذه الظاهرة تؤدي إلى الخمول وضعف الوعي القومي.

فالتقدم الحضاري بالرغم من كونه دليلا على مدى ما وصل إليه المجتمع من الرقي يحمل معه كما يحمل الرقي السياسي وأسباب الاضمحلال وعوامل الفناء ، وقد بلغ به التشاؤم إلى حد أنه قرر أن الحضارة نهاية العمران وبها يتم فساده.

دراساته السياسية

بدأ ابن خلدون بحوثه السياسية: بتحليل وجود النظام السياسي، وتعليل قيام الحكومة تعليلا عقليا اجتماعيا.

ويقسم ابن خلدون النظام السياسي إلى شكلين:

- المجتمعات التي تسير على سياسة عقلية
- المجتمعات التي تكون محكومة بسياسة دينية

والسياسة العقلية في نظره هي النظام الذى يقرره فلاسفة الدولة أو التشريع الذى يرتضيه عقلاؤها

والسياسة الدينية هي الذى يفرضه نبي من الأنبياء موحى إليه من الله سبحانه وتعالى والسياسة الدينية في نظره أفضل من الأولى.

وتكلم ابن خلدون عن الدولة والدعائم التي تقوم عليها. وهذه الدعائم في نظره أربعة:

- العصبية
- والفضيلة
- ووجود دعوة دينية أو مبدأ سياسي
- ثم ضعف دولة سابقة حتى يتاح قيام دولة أخرى على أنقاضها وشرح عامل من هذه العوامل بالتفصيل.

hadeel alnafea

ومتى تكونت الدولة فلابد لها من سياسة تنظم أمرها، ولابد من ملك يحكمها.... والملكية في نظره وظيفة طبيعية شريفة في مطلبها ولها خواص جوهرية تنزع إليها وتسعى وراءها ويلخصها ابن خلدون في ثلاثة الانفراد بالمجد والسلطان ثم النزوع إلى الترف وأخيرا السكون والدعة لأن الملك قد وصل إلى غاية الغايات.

مراحل تطور الدولة

والدولة كحقيقة اجتماعية تخضع للتطور، وقد صور ابن خلدون مراحل تطور الدولة قائلا : أن الدولة تنتقل في أطوار وحالات متجددة ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقا جديدا وهذه الأطوار لا تعدو في الغالب ما يأتي:-

- طور الظفر بالبغية والاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدولة السابقة والعمل على تدعيمه.
- طور الاستبداد والانفراد بالسلطة والتنكر لأهل العصبية القاهرة والالتجاء إلى اتخاذ الموالي وجنود الارتزاق.
- طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك مما ينزع إليه طبائع البشر من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت.
- طور القناعة والمسالمة ويكون صاحب الدولة قانعا بما ورثه عن آبائه ويكتفي باقتفاء آثارهم وسيرتهم.

أخيراً: طور الإسراف والتبذير

ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلافا مبذرا خاضعا لنزواته وشهواته وسرعان ما تصاب الدولة بالهرم الذى يؤذن بانحلالها وفنائها لأن الهرم إذا نزل بدولة فإنه لا يرتفع.

عمر الدولة ومراحل المجتمع السياسي

ولمس ابن خلدون وهو يدرس الدولة نقطة طريفة حقا وهى تحديد عمرها وقد حدده بمائة وعشرين سنة لأن المجتمع السياسي في نظره يمر بثلاثة مراحل وهي : الطفولة والشباب والشيخوخة وكل مرحلة تمثل في نظره جيلا ، والجيل في عرفه لا يعدو أربعين سنة ، وفى هذا الصدد يقول أن الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون أربعين سنة والذي يعبر عن انتهاء النمو والوصول إلى غايته ، وفى ضوء هذا التقدير تعمر الدولة مائة وعشرون سنة.

ومن الطبيعي أن يدرس ابن خلدون وهو العالم المسلم ظاهرة الخلافة الإسلامية وهي ابرز الظواهر السياسية التي ظهرت على مسرح الحياة الاجتماعية وبدون الدخول في تفاصيل نشأة هذه الظاهرة بعد وفاة الرسول وتطورها وتطور وظائفها السياسية والدينية.

ويتكلم ابن خلدون في شرط الخلافة وهي في نظره أربعة:

- العلم
- والعدالة
- والكفاية
- وسلامة الحواس والأعضاء ، مما يؤثر في الرأي والعمل.

ودرس ابن خلدون ظاهرة الحرب واعتبرها أمرا طبيعيا في البشر لا تخلو منه أمة ولا جيل وأصلها إرادة انتقام البشر من بعض وسبب هذا الانتقام في الأكثر إما غيرة ومنافسة وغما عدوان وغما غضب لله ولدينه وإما غضب للملك وسعى في تمهيده.

hadeel almatea

وقدم ابن خلدون صفحات رائعة في دراسته لظاهرة الظلم الاجتماعي وفى هذا الصدد يقول "أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهى بها من أيديهم" وهو مؤذن بخراب العمران ويستعجل عمر الدولة قبل الأوان.

دراساته الاجتماعية الأخرى

درس ابن خلدون الظواهر الاقتصادية ، واعتبر الضرورة الاقتصادية دعامة من دعائم نشأة المجتمع وشرح وجود الكسب الطبيعي وغير الطبيعي:

فالزراعة والصناعة والتجارة وجوه طبيعية لكسب الرزق

وأما الإمارة والخدمة والاشتغال بالسحر والشعوذة فهي وجوه غير مشروعة للكسب أو للارتزاق

ومع ذلك وفق ابن خلدون إلى تقرير عدة قواعد اقتصادية هامة منها:

- أن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري وأن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها
- وأن الصنائع إنما تستجاد وتكثر إذا كثر طالبوها.

الظواهر الأخلاقية في المجتمع

درس ابن خلدون الظواهر الأخلاقية في المجتمع واستأثرت هذه الناحية بمزيد عنايته ، وأوضح أثرها في مبلغ تقدم المجتمع وفي مدى مقاومته لظواهر الهدم ، وقدم لنا ابن خلدون ناحية هامة من نواحي البحث الأخلاقي وهي دراسة أخلاق الملوك والأمراء وقدم لهم في هذا الصدد وصايا ونصائح تعتبر نتيجة مباشرة لتجاربه الشخصية وثمرة من ثمرات حياته العملية وظروفه الخاصة التي اضطرته أن يخدم معظم ملوك عصره.

وفضلا عن ذلك وجه ابن خلدون مزيد عنايته إلى دراسة الناحية التربوية ودرسها كما يدرس علم الاجتماع وشرح اثر الحضارة في العلوم والمعارف ووضع في هذا الصدد قواعد تربوية.

وجميع قوانين ابن خلدون وأفكاره التي اشرنا إليها مستمدة من ملاحظاته لظواهر الاجتماع التي شاهدها أو عرف تاريخها بدون أن يستوحى مبدأ فلسفيا أو يتأثر بأفكار سابقة.

خامساً: نقد آراء ابن خلدون.

كانت نظريات ابن خلدون فيما يتعلق بالدعائم التي تقوم عليها الحياة الاجتماعية هدفا لانتقادات كثيرة من جانب علماء الغرب:

فادعوا أن فكرته عن المجتمع لم تكن واضحة كل الوضوح، ووصفوه بأنه من أنصار المدرسة الحيوية، وأنه اعتمد في دراسته لظواهر المجتمع على دراسة الفرد، وأنه أرجع معظم العوامل المؤثرة في ظواهر الاجتماع إلى عوامل بيولوجية. فأساءوا فهم آرائه وخرجوا بها عن القصد وأخذوا بعض معانيه على ظاهرها بدون تحقيق او تمحيص.

ومثال لذلك قوله "المجتمع يولد كما يولد الفرد ويمر كما يمر الكائن الحي في ادوار الطفولة والشباب والرجولة والشيخوخة".

فالمجتمع جسم مركب والنظم الموجودة فيه هي بمثابة أعضاء هذا الجسم

ويعيب كثير من المفكرين على ابن خلدون أنه لم يلتزم في تعليلاته القواعد المنهجية التي اشرنا إليها فيما سبق وأنه وقع أسيرا لتأثير الدين والسحر والرقي والتمائم ، ورأى هؤلاء النقاد أنه كان من الواجب أن ترتفع ذهنية ابن خلدون عن التسليم بهذه الأساليب الشعبية الدارجة.

بيد أن ما يوجه من نقد برئ إلى ابن خلدون هو أنه لم يحسن استغلال قواعده المنهجية ولم يسر في تطبيقها إلى النهاية

فالخطأ الذى وقع فيه ابن خلدون يرجع إلى نقص كبير في استقراء الظواهر. فهو لم يستقرئ الظواهر إلا عند أمم معينة وفي عصور خاصة

وانتهي من هذا الاستقراء الناقص إلى أفكار وقوانين ظن أنها تصدق في كل مجتمع وفى كل زمان، بل بالعكس يدلل على روحه العلمية وأحكامه التقريرية واتجاهه الوضعي.

وإذا تركنا هذه الانتقادات الجزئية لا يسعنا إلا أن نقرر أن ابن خلدون هو أول مفكر انشأ علم الاجتماع وأقام دعائمه ورسم منهجه وعين موضوعه وأبوابه ودرس ظواهره.

غير أن بحوثه التي اشرنا إليها لم تنل ما كانت تستحقه من الذيوع والانتشار والمتابعة والمثابرة ، فلم يترك من بعده تلاميذ ومريدين أبرارا يحملون رسالته ولذلك أبخله التاريخ حقه إلى حين حتى قام بعض المستشرقين في القرن التاسع عشر بترجمة مقدمته والتعليق عليها ومن ثم ارتفع ابن خلدون في النقد المعاصر إلى مصاف علماء الاجتماع واعتبر بحق أول منشئ للعلم.

إن ثروة الأمم بكثرة سكانها المحبين للعمل ، والمجيدين له ، المبدعين فيه .،، "ابن خلدون"

انتهى مبحث ابن خلدون.

hadeel alnafea